

**النسوية في السياق العربي:
ظروف النشأة، السيرورة التاريخية، وأبرز التحوّلات**

**Feminism in the Arab context:
The circumstances of the upbringing of the historical
process and the most prominent transformations**

د. زينب التوجاني

**كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة
تونس**

toujanizeineb@yahoo.fr



النسوية في السياق العربي: ظروف النشأة، السيرورة التاريخية، وأبرز التحولات

د. زينب التوجاني

الملخص:

ارتبطت النسوية في السياق العربي بظروف تاريخية وبسياق النهضة والتحديث ومساهما المتعثر، وأمسّت بمثابة فاعل من فواعل التغيير المأمول والنهضة الحقيقية المرتقبة. وفي هذا المقال مدخل إلى تعريف النسوية العربية والتعريف بأهم مراحل تطورها واتجاهاتها ورهاناتها الكبرى من منظور تاريخي الكلمات المفاتيح: نسوية عربية، فاعل اجتماعي، النهضة، الإصلاح، التحديث، حقوق النساء، المساواة

Abstract:

Feminism in the Arab context has been linked to historical circumstances and the context of renaissance and modernization and their faltering path, and has become an actor of the agents of the hoped-for change and the anticipated real renaissance. In this article, there is an introduction to the definition of Arab feminism and the most important stages of its development, trends and major stakes from a historical perspective.

Keywords: Arab feminism, social actor, renaissance, reform, modernization, women's rights, equality

1- المقدمة:

تزداد معالم النسوية في السياق العربي اليوم وضوحاً، وإن بدت مشتتة فهي فكرة جوهرها تغيير واقع النساء وتحقيق المزيد من المساواة، لا فقط بين الرجال والنساء، بل إن جوهر النسوية، في السياق العربي منذ انبثقت، هو تحقيق المساواة الاجتماعية، وتحقيق المواطنة باعتبار المرأة رمزاً لجميع الفئات التي تعاني من التمييز. فخصوصية النسوية العربية كامنة في أنها عامل من عوامل تجديد البنية الاجتماعية بهدمها وإعادة بنائها، من بنية القبليّة وقيمها إلى بنية المواطنة عبر مسار النهضة المتواصل رغم العقبات.

وهذه النسوية التي تمثّل عنصراً بارزاً من عناصر الفعل الاجتماعي والفكري، لها أسماء لامعة وأخرى تعمل في صمت، ولها منظمات وجمعيات وجدت نفسها في قلب الصراع، وإن لهذه الحركات والجمعيات والاتحادات والأصوات النسائية المفردة تاريخاً، ولهذا التاريخ ماض قد ترك بصماته، وآخر أخفاها النسيان وتتطلب الحفر فيها والنّش عنها، وفرضية هذا المقال، أن النسوية في العالم العربي تأثرت بالنسوية الغربية لكتّابها ليست تقليداً أعمى لها وتطوّرت بإسهامات الرجال من المصلحين، ولكتّابها لم تبدأ على أياديهم وحدهم، وإنما كانت النساء المنسيات أمهات هذه النسوية التي تجدد في المطالبة بحقوق النساء وكرامتهن بحسب ما تسمح به ظروف التاريخ وأحواله وصروفه. وهي تعبير عن رغبة في تغيير واقع النساء ولكتّابها أيضاً تأمل تغيير واقع التمييز نحو بنية اجتماعية أكثر عدالة.

ولسنا نعني بـ "النسوية العربية" شكلاً واحداً من أشكال التعبير النسوي، ولا نعني أيضاً حركة متسقة ومتكاملة بين النساء العربيات، ولا نقرّ بوجود وعي نسوي بكامل البلدان العربية يجعل النسوية حركة مدركة للصعوبات وللرهانات وللتحديات بل إن "النسوية العربية" لا تزال، من منظور تاريخي، في بداية التشكّل والتطور. وقد اجتمعت في 2009 باحثات ونسويات ضمن مؤتمر عقد في الجامعة الأمريكية في بيروت. وتمحور حول النسوية العربية لمحاولة تقييمها نظرياً وعملياً. وتمّ فيه الإقرار بوجود حركة نسوية عربية أصيلة، وإن من دون وجود شكل نسويّ عربيّ وحيد شامل¹. ومن جهة أخرى نجد باحثات² يذكرن أن يكون التيار النسوي العربي كتلة منسجمة ومتألّفة، ويعتبرن أنه لا يمكن أن نعتبر النسوية العربية حركة بالمفهوم العلمي للكلمة. وتفسّر هؤلاء الباحثات ذلك بعوائق من خارج التيار النسوي وداخله كذكورية المجتمع وارتهاق الناشطين إلى تمويلات تحدّ من حريّتهم وبرجوازيّتهم، وإلى عدم توسيع شبكات تحالفهم وعلاقاتهم.

ويجدر التنبيه إلى الفرق بين نسوية ونسائية، فنحن في هذا المقال نستخدم نسوية بشكل عام لنعبّر عن مراحل تطوّر الفكر النسويّ من مرحلة ما قبل النسوية إلى المرحلة النسوية، بمعنى أن النسوية في منظورنا تشترط الوعي بها وبالخلفيات النظرية التي تحرك النساء ليتنظمن ضمن استراتيجية محددة لنيل حقوقهنّ،

1- النسوية العربية رؤية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية- تجمع الباحثات اللبنانيات، بيروت، 2012، ص 12.

2- صفاء صابر خليفة، المشاركة المدنية للشباب والبيئة العربية: ست سنوات على تحليل الخطاب وتقييم الفترة الماضية، نموذج مساهمة المرأة في الحياة السياسية العربية، في: مشاركة النساء في السلام، الأمن والعمليات الانتقالية في العالم العربي، مساهمة باحثات وباحثين، مؤتمر فريديريش إيبيرت/مساواة، بيروت، 16-17 نوفمبر 2017، صص 354-357.

فيما أن نضالات النساء اليومية التي تتم بشكل واع أو غير واع لا تعبر بالضرورة عن حدوث هذا الوعي بالخلفيات وبال الحاجة إلى التنظيم في حركة جامعة موحدة للجهود النسائية من أجل تأثير مباشر على حقوقهن وحيواتهن. لقد ذكرت حسن عبود في أحد مقالاتها أن مصطلح "نسوية" بدأ استعماله في التسعينات فيما كانت الكاتبات يستعملن قبل ذلك مصطلح "نسائيات"¹. وقد فسرت إلهام المرزوقي ارتباط النسوية العربية بظروف التحديث المنقوص في البلدان العربية وبنى لم تستوعب بعد المعايير العقلانية والتطور المطلوبين. فتخلف التنمية أدى، حسب رأيها، إلى غياب إمكانية تعريف لهذه النسوية العربية التي وجدت أمامها منذ نشأتها عقبات مضعفة اقتصادية وعالمية ترتبط بالهيمنة وبنى الاستغلال². ونحن نرى اليوم قوى نسائية يتحكم فيها السياق التاريخي، فتساعدتها التقنيات الحديثة على التعبير بشكل متزايد عن توقعها لتحقيق وجودها، وإن ظل ذلك التحديث المنقوص يمثل عائقا حقيقيا أمامها.

والنسوية في المنظور العلمي³ تركز أساسا على مفهوم فاعلية النساء وحركتهن، فهي الوعي بأن الظلم والتفرقة الواقعين على النساء ليسا مجرد صدفة تاريخية ولا مشكلة ثقافية أو جغرافية أو قضية مرتبطة بالفقر والجهل، بل أيضا توجد عوامل معقدة مباشرة وغير مباشرة تقع على النساء وحدهن ويعاني منها مجتمع بكامله. وهي حركة اجتماعية وسياسية تشير إلى عدم صحة الفصل التام بين المجالين العام والخاص، فالحياة الخاصة هي أيضا أمر سياسي ذلك أن قرارات النساء بالزواج والطلاق والانجاب تؤثر بسياسات الدولة. ويتمثل الوعي النسوي في الشعور والإدراك بمشكلة التمييز الواقع على النساء نتيجة لكونهن نساء بالأساس والالتزام بقضايا النساء من هذا المنطلق. وهي حسب آمال قرامي "حركة سياسية ذات أهداف اجتماعية تحولت إلى حركة اجتماعية تهدف إلى استقلالية المرأة وإبراز أهمية دورها في الحياة والدفاع عن حقوقها"⁴.

إن النسوية إذن في الأصل حركة سياسية غايتها إحداث تغييرات اجتماعية لفائدة النساء بتمكينهن من حقوقهن، ولكنها في السياق العربي ارتبطت بظروف تاريخية ودينامية النهضة والتحديث ومسارهما المتعثر، وأمسّت بمثابة فاعل من فواعل التغيير المأمول والنهضة الحقيقية المرتقبة. ولذلك يمكن عموما تقسيم هذه التيارات حسب مراحل التطور إلى ما قبل حدوث لحظة الوعي النسوي أي تلك اللحظة التي أمسكت فيها المرأة العربية قلمها لتنظيرها ونقدا وابداعا لتساهم بنفسها في التعبير عن احتجاجها وتوقها لتحطيم بنى التمييز. وقبل ذلك مرت النسوية بمراحل مهمة مهّدت السبيل لانبثاق الوعي بضرورة إعادة النظر في التاريخ العربي والإسلامي من منظور نسوي لتمكين النساء من حقوقهن. ومع أن جهود النساء في الأقطار العربية

1- حسن عبود، الخطابات المتباينة للنسوية والإسلام، باحثات، الكتاب 9، بيروت، ص 357.

2- إلهام المرزوقي، الحركة النسائية في تونس في القرن العشرين، ترجمة آمال قرامي، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010.

3- انظر التعريف في: دليل للدراسات النسوية النسائية الشابة، نظرة للدراسات النسوية،

<https://nazra.org/sites/nazra/files/attachments/>

4- آمال قرامي، مقال النسوية الإسلامية، حركة نسوية جديدة أم استراتيجية لنيل الحقوق؟، في النسوية العربية رؤية نقدية، ص

كانت متفاوتة حسب طبيعة البيئة والظروف، إلا أننا سنحاول إجمالاً تلخيص تلك الجهود في ثلاث مراحل بارزة امتدت من أواخر القرن 19 إلى يومنا هذا:

- المرحلة الأولى: إرهاصات الوعي النسوي
- المرحلة الثانية: لحظة التسعينات: انبثاق الوعي النسوي
- المرحلة الثالثة: ما بعد الثورة التونسية والثورات العربية

2- المرحلة الأولى: إرهاصات الوعي النسوي العربي:

2-1- مرحلة المطالبة بالتّعليم:

تميّزت المرحلة الأولى لتكوّن الوعي النسوي العربي بانبثاقها ضمن سياق فكر التّهمّزة والإصلاح وخطابهما الذي يربط بين الوحدة الوطنية وحرية المرأة، ويركّز على المطالب الأساسية الأولى، أي الحق في التّعلّم والعمل أساساً. وطرحت في هذه المرحلة قضايا الحجاب والسّفور واحتدّ النقاش بين دعاة المعاصرة والتّجديد والأصالة والجمود، ويمكننا أن ننتقل في التّاريخ لهذه المرحلة بالإشارة إلى دور الأميرة نازلي (ت. 1914) التي كانت تتقن أربع لغات، هي العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية. ومكّنها ذلك من سعة الاطلاع على آداب الشعوب الأخرى، وكان لوالدها مكتبة ضخمة. ونشأت نشأة مكّنتها من أن تكون رائدة بإنشاء أول صالون ارتاده كثيرون تأثروا بما كان يجري فيه من نقاشات، من بينهم قاسم أمين ومحمد عبده والافغاني الذين ساهمت نازلي في تحسيسهم بالقضية النسائية في بوادرها الأولى¹. فكتب قاسم أمين (توفي 1908) كتابيه الشهيرين: تحرير المرأة والمرأة الجديدة ودعا فيهما إلى تعليم المرأة وحققها في العمل وخاض في قضية الحجاب والسّفور، وبرزت في هذه المرحلة كتابات أولى مهمة لرائدين كالطهطاوي (ت. 1873) وكتابه المرشد الأمين للبنات والبنين² دعا فيه إلى التّعليم المختلط وتعليم البنات، وحاجة الأمّة إلى ذلك. فكما تقرّ باحثات نسويّات³، يجدر بنا الانتباه إلى السرديات الأبويّة التي تجعل النّساء مجرد منفعلات بمبادرات المصلحين الأوائل في حين أنّه بإمكاننا العثور على أدلّة تؤكّد أنّ نساء عديدات من طبقة مرقّمة تلقّين تعليماً في طفولتهن في بيوتهن، واستطعن أن يؤثرن بشكل مباشر في تطور الفكر الإصلاحي واهتمامه بأحوال النساء، كما حدث مع تأثر قاسم أمين بالحوارات التي كانت تدور بينه وبين الاميرة نازلي في صالونها.

وقد سبقته إلى طرح قضايا النساء أقلام نسائية كعائشة تيمور (ت. 1902) واللبنانية زينب فواز (ت. 1914)، فوضعت الأولى كتاباً في القوامة وشروطها ومعناها، وكتبت الثانية تدعو لحرية المرأة وتدافع عن حقوقها في مجموعة من الرسائل تحمل عنوان "الرسائل الزينبية"، أو كما تأثر الطاهر الحداد

1 - انظر ترجمتها في: أحمد رجائي، 1000 شخصية نسائية مصرية، سلسلة الموسوعة، ص 113.

2- الطهطاوي رفاة رافع، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1977.

3- ميرفت حاتم، ماذا تريد النساء؟ في النسوية العربية رؤية نقدية، ص 103.

بالحوارات التي كانت تدور بينه وبين النساء اللواتي يأتين يشتكين أوضاعهن الاجتماعية الصعبة في دكان أحد المشايخ الذين كان يجلس حذوهم. وكان قادرا حينئذ على مراقبة معاناتهن عن كثب. وقد وصف صدى تلك المحاورات والمعاناة في قسم من كتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع¹.

إنه ينبغي أن ننبه، ونحن نلخص أهم سمات هذه المرحلة الأولى إلى التاريخ الذي لم يكتب وبقي منسيا، على نساء كن يعملن في صمت وفي عتمة، ولم يحتفظ لنا التاريخ بأسمائهن، ولكنهن آثرن بشجاعتهم ويعملن الدائم في تطوير الأسئلة حول المرأة العربية وأوضاعها البالية. وكنّ أحيانا في مواجهة تلك البنى التقليدية بكل جرأة. لقد لعبت التجربة الشخصية دورا مهما في تطوير وعي النساء بمنزلتهن ومحاولتهن تحسين وضعهن، فخصّصت هدى الشعراوي- التي عاشت التمييز في طفولتها، وحرمت من التعلم في المدارس، وزوّجت باكرا، حياتها للتحسيس بحقوق النساء - في 1908 قاعة في الجامعة لتعليم النساء وتأسس الاتحاد النسائي المصري في 1923. ونزعت هدى الشعراوي الحجاب، وأسست في 1966 جمعية تحمل اسمها. وفي لبنان نظرت نظيرة زين الدين في 1928 للسفور والحجاب ولخلعه وكانت لحظة مهمة فارقة في تاريخ الوعي النسائي بقضاياهن. وتميزت هذه الفترة عموما ببوادر أولى للحراك النسائي أبرزت قدرتهن على مواجهة قدرهن في أحلك الظروف.

وتؤرخ إلهام المرزوقي للحركة النسائية التونسية بالعودة إلى مرحلة ما قبل الثلاثينات مشيرة إلى أهمية الاحتجاج الرمزي الذي قامت به حبيبة المنشاري ومنويّة الورتاني سنتي 1924 و1929 والذي أعلن انطلاق الوعي النسائي بقضية الحق في المساواة وفي المشاركة في الحياة العامة. لقد ساهمت المرأة التونسية في تلك الفترة التاريخية في الحراك ضد الاستعمار وفي الخروج إلى الفضاء العمومي في حركة رمزية احتجاجية أعلنت معركة السفور ودلت على قدرة النساء على مواجهة تحديات المجتمع وأعرافه وظروفه الاقتصادية والاجتماعية. وليس الأمر حكرا على المصريات والتونسيات فقط، بل تشابهت في هذه الفترة التاريخية حركة النساء العربيات ومساهمتهن في مقاومة الاستعمار في بلدانهم، وحتى في بلد جامد التقاليد كالسعودية استطاعت المرأة في هذه المرحلة أن تشرع بالتعبير عن نفسها بالكتابة، ونشر لها بعض المذكرات والمقالات². فقد ظهرت منذ 1911 حركة أدبية ساهمت فيها الكاتبة ملك حفني ناصف 1886-1918 ولبيبة هاشم محررة فتاة الشرق، وأثرت أيما تأثير في النساء العربيات في كامل البلدان العربية. وازداد الاهتمام بما ينتجه النساء وما يبرعن فيه، فكتب حسن حسني عبد الوهاب في تونس في 1917 كتابه "شبهيرات تونسيات".

وخلاصة هذه المرحلة تتمثل في بروز تحرك نسائي في المجال العام احتجاجا ضد الاستعمار أو ضد التمييز والحرمان من الحق في التعليم. ويساند هذا التحرك النسائي فكر النهضة والإصلاح المنبثق عن السياق التاريخي برمته. وسيزداد هذا الوعي قدرة على التعبير عن نفسه والبروز بالتقدم في الزمن وتطور الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

1 - الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع.

2 - هتون أجواد الفاسي، في مقالها: هل هناك نسوية سعودية؟ في النسوية العربية، رؤية نقدية، ص 167.

لقد ظهرت بوادر الوعي النسوي في شتى الأقطار العربية حتى الأشدّ تحفظاً فيما يخصّ حقوق النساء، وهي، وإن كانت مواقف فردية أحيانا لغياب مشروعية الحديث عن تنظيم نسوي أو تيار نسوي، فإنّه لا يمكن التقليل من شأنها، وقد انتشرت هذه الموجة على كامل أقطار البلاد العربية، في شكل صحف وكتب ومقالات. وأُسست مجلّات للدّفاع عن النساء وحُبرّت كتب عديدة. وصدحت النساء بمواقفهن مثل تلك المواقف النسوية لسعوديات يقاومن البنى الجامدة، ويحاولن بكلّ شجاعة إيصال أصواتهنّ. ومن ذلك مقالة للردّ على فكرة أنّ النساء ناقصات عقل ودين في مجلة قريش سنة 1959¹، وغير ذلك من الأمثلة التي تركها لنا تاريخ الفعل النسائي الجبار المقاوم لكلّ البنى الجامدة. ومن ذلك اقتحام السعوديات لمقاعد العلم والدراسة رغم معارضة السّلط الدينية المتشدّدة. وستثمر كلّ هذه المقاومة النسائية وحصول أعداد غفيرة من نساء العالم العربي على التربية والتعليم وتمسّك بعضهن بالتدرج في التعليم إلى مراحل الجامعة والدكتورا، سيثمر كلّ هذا الواقع الجديد ثماره في التسعينات.

2-2- ما بعد الحرب العالمية الثانية: المساهمة في حركات التحرّر:

انخرطت الأصوات العربية النسائية الصاعدة والقوى الفاعلة في حركات التحرّر الوطني، وساهمن بشكل متزايد في الحراك النقابيّ والسياسيّ وفي معارك الاستقلال. وارتبطت رهانات الدولة الوطنيّة في هذه المرحلة بتحرير النساء وتعليمهنّ وتشريكهنّ في بناء الأوطان. وازدادت الأصوات النسائية وضوحاً، وتزامن إصدار مجلات نسائيّة عديدة مع تأسيس الجمعيات في كلّ البلاد العربية.

فقد تميزت مرحلة الثلاثينات وما بعدها بنشأة أولى المؤسّسات الرسمية النسائية التي انطلقت على إثر صدور بعض الكتب الرائدة والحراك المهمّ، فتأسس في 1936 الاتّحاد النسائيّ الإسلاميّ التونسي و1945 اتّحاد المرأة الأردني الذي اهتمّ بالتصدي للتمييز أساساً. وفي سنة 1953 تأسّس نادي البحرين للسيدات لمساعدة الفقراء وتعليم النساء المهارات الأساسية. وفي 1965 تأسس الاتّحاد العام للمرأة الفلسطينية ومثّل قاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية. وفي 1966 تأسّست جمعية هدى الشعراوي. ودعت للمقاومة والدفاع عن القضايا العربية، وفي 1975 تأسس الاتّحاد النسائيّ العام بالإمارات للمطالبة بحقوق النساء في التعليم أساساً.

لقد تميزت هذه المرحلة بالتزام النساء بقضايا تحرير الأوطان وببدايات المطالبة بالحقوق السياسية، فخرجت النساء في مظاهرات تنديدا بالاستعمار كتلك المظاهرة التي خرجت فيها نساء تونسيات سنة 1939 في باب سعدون، وقبض فيها على 12 امرأة. وساهمت النساء الريفيات مساهمة كبرى في معاضدة "الفلاحة-المقاومين" بالبلاد التونسية بين 1952 و1954. وتجمّع النساء سنة 1955 لمطالبة الحكومة بحقوقهنّ المدنية والمساواة مع الرجال. وتوجت هذه المساعي في 1956 بإصدار مجلة الأحوال الشخصية بتونس. غير أنّ ثمار هذه البذور النسوية المزروعة في المجتمعات العربية لم تزهر في كل البلدان بنفس الوقت ولا بنفس الدرجة، ففي السعودية مثلاً لم يتمّ الاعتراف أصلاً بقضية حقوق النساء إلا سنة 2003 على حدّ قول الباحثة

1- ذكرت هذا المثال هتون أجواد الفاسي، في مقالها: هل هناك نسوية سعودية؟ في النسوية العربية، رؤية نقدية، ص 167.

السعودية هتون أجواد الفاسي، وقد تأخر ذلك الاعتراف، وتأخرت معه مكاسب النساء، فيما استطاعت النسوة التونسيّات أن يقطعن أشواطاً نحو المزيد من الحقوق والحريات، ونحو المزيد من التحرّر من الأغلال. فلذلك لا يمكن الحديث عن حركة منسجمة، والحال أنّ لكلّ بلد عربيّ ظروفه وأنّ النساء العربيات اللواتي بدأن تقريبا من نفس النقطة لم يصلن إلى تحقيق نفس المنجزات بعد، لأسباب تتعلق بالسياسة والاقتصاد والحروب والقوى التي تشد إلى الوراء. وسيزداد هذا الواقع النسوي تمزّقا وتفاوتا بمرور السّنوات.

3- المرحلة الثانية: لحظة التسعينات:

3-1- انبثاق الوعي النسوي والمطالبة بالحقوق السياسية:

انبثق في التسعينات الوعي النسوي بالمفهوم الاصطلاحي مستقلاً عن السّلطة القائمة في جلّ البلدان العربية. فقد صعدت في هذه الفترة الدولة القوميّة، وحاولت احتواء الأصوات النسائية وإخضاعها لسلطتها فنشأت نسويّة يُصطلح عليها بنسويّة الدولة، وتصاعدت في هذه الفترة تيارات الإسلام السياسي، وعلت الصحوة الإسلامية، فتزايدت فاعليّة التيارات النسويّة، فقد كانت بمثابة ردّ فعل على هذا التنامي المتزايد للأسلمة الذي يهدّد ويستهدف النّساء وحقوقهنّ أساساً.

وهكذا فقد بدأت النسويّات ينفصلن عن السّلطة القائمة ليحدثن أولى المنظمات النسائية المستقلّة، فانفصلت لجنة سيّدات الوفد في مصر عن حزب الوفد بسبب تجاهل الوفد لآراء اللّجنة النسائية. وأسّست إلهام المرزوقي سنة 1978 نادي قضايا النساء ومجلّة نساء سنة 1985. وصعد تيار نسويّ يساريّ يعارض السّلطة القائمة. وتأسّست في 1989 جمعية النساء الديمقراطيات التونسيّة متصدية لسياسات الدولة ومستقلة عنها. وظهرت هذه الجمعيات المناهضة للصحوة الإسلاميّة وللإستبداد في الجزائر والمغرب كذلك، وفي 1985 تأسّست الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب وكانت تابعة لحزب التقدم والاشتراكية. وتأسّست في الجزائر جمعيات نسائية مستقلة بعد إصدار قانون الجمعيات سنة 1989، وركّزت هذه الجمعيات على المطالبة بالمساواة بين الرجال والنساء، من ذلك الجمعية من أجل المساواة بين الرجال والنساء أمام القانون، وجمعية النّساء من أجل المساواة والمواطنة. وامتدت هذه الحركة المستقلة في المغرب العربيّ خاصّة وازداد وعمها بحضور فواعلها المؤتمرات العالمية التي لعبت دوراً في التأكيد على التلازم الضروري بين الديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان والسّلام، وتمسكت هذه الجمعيات النسائية المستقلة في تونس والمغرب والجزائر بالدّفاع عن هذا التّلازم بين قضايا النّساء وقضايا الديمقراطية، فوجدت نفسها في مواجهة الفكر السلفي من جهة والأنظمة السياسية الحاكمة التي ضيّقت عليها وعطلت نجاجتها من جهة أخرى.

وفي السعودية تعالت الأصوات النسائية سنة 1990 للمطالبة بالحقّ في قيادة السيارة. لكنهنّ واجهنّ قمعاً شديداً وضغطاً تحركه قوى دينية متشدّدة.

لقد شمل الحراك النسائيّ المستقل أوساطاً متعلّمة استفادت من التعليم الذي تلقّته في سنوات الاستقلال الأولى وبدأ يعطي ثماره، وفي تونس نشطت مجموعات من النساء المتعلّقات والعاملات، أبرزهنّ

لجنة المرأة العاملة صلب الاتحاد العام التونسي للشغل، ولجنة المرأة في صلب المنظمة التونسية للدفاع عن حقوق النساء الديمقراطيات التي تكوّنت من جامعيّات طالبين بمكاسب حقوقية. وكان السعي الأساسي هو الاستقلال عن السلطة.

لقد تميّزت هذه الفترة بتعدّد التيارات النسوية وتنوعها، فنجد نسوية تطلق على نفسها مصطلح: نسوية إسلامية، ظهرت تقريبا بعد الثورة الإيرانية وساهمت فيها نساء تصاعدت معهنّ آمال الصّحوة الإسلاميّة تمسّكن بما يسمّينه ثوابت دينية كالحجاب وغيره، ممّا يطلق عليه بالحدود البيئية، فأثرت هذه الفاعلية في تيارات الصّحوة التي باتت تشجّع النساء المنضويات تحتها على المبادرة والأخذ بزمام الفاعلية النسوية الإسلاميّة، ثم سبّرت نسوية إسلامية لها بعد ثان غير إخواني منطلقها مراجعة التأويل الذكوري للتّصوص الدينية ومحاولة جعل الإسلام متلائما مع العصر ومع الاجتهادات المعاصرة. وتميّزت في هذه النسوية أصوات مجدّدة تملك معرفة دينية وتأويلية جديدة كأمانة ودود وأسماء المرابط في المغرب وزهية جويرو في تونس. ونجد النسوية العلمانية التي تشعبت بدورها أيديولوجيا إلى ليبرالية ويسارية واستمرت إلى جانب تلك التيارات المتصارعة نسوية الدولة المتمثلة في الاتّحادات القومية التي ترعاها الدولة. وتمسّكت الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات بهذه العلمنة وبالمطالبة بالفصل بين الدين والدولة معتبرة أنّ تحقيق مطالب النساء في الكرامة والعدل والمساواة لا يتحقق إلا بتحقيق العلمنة الضرورية.

وبذلك يمكننا أن نلاحظ أنّ النسوية في العالم العربي بدأت مرتكزة على تعاليم الإسلام وقيمه، ونبعت من مفهوم الاجتهاد الفقهي نفسه، ومن مرجعية فقهية ودينية، ثم أمست ذات طابع قومي مع صعود الدولة القومية، ثم مع صعود الصّحوة الإسلامية افتقرت إلى نسوية إسلامية ونسوية علمانية مضادة. وتولّدت نسوية في خضم الصراع التاريخي من مخاض هذا الخطاب النهضويّ حول المرأة، وهذا يؤكّد على أصالة هذه التيارات الفكرية النابعة من عمق حاجة النّساء للتّغيير ومن حصول الوعي لديهنّ بحقوقهنّ المسلوبة ومن منظومة الفقه ذاتها التي أتاحت لهنّ بابا للتأويل والتّجديد. فالنسوية بذلك ليست غريبة عن تربتها وعن مشاغل النّساء وحاجاتهن.

لقد تأثرت النسوية العربية بالتيارات الإيديولوجية التي انتشرت في العالم العربي أيّما تأثر، فأمست الليبرالية والماركسية ومنتجاتهما الفكرية تغذّي هذه الاتجاهات، وتعمّق مفاهيمها، ولكن ذلك قد ساهم في تشتيت الجهود النسائية وإضعاف فاعلية هؤلاء وخسارتهم الوقت ومعارك عديدة خضنها، أهمّها معركة المشاركة السياسية في الوقت الذي أمست فيه كلّ النّساء العربيّات قادرات على المطالبة بالحقّ في التّعليم، وقد كان ذلك الحقّ البسيط في بداية القرن العشرين محلّ شكّ وتفاوض.

إن لحظة انبثاق هذا الوعي النسوي قد مثلت نقطة فارقة بين النسوية المنبثقة من الفكر الإصلاحي ومن مفهوم الاجتهاد الفقهي نفسه، ونسوية لها أسس علمانية متأثرة بالتيارات الغربية دون أن تكون منبثّة عن جذورها وعن حاجيات النساء. فوجدت النسوية العلمانية خاصّة في بلاد المغرب العربي نفسها في قلب الصراع السياسيّ من أجل الديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان.

4- المرحلة الثالثة: ما بعد الثورة التونسية والثورات العربية:

4-1- المشاركة في الثورات وتحقيق الذات:

اختلفت السياقات العربية اختلافا شديدا بين ثورات نجحت نسبيا وثورات أدت إلى سقوط الأنظمة والدخول في الفوضى والمجهول، وأمست التحديات التي تواجهها الأصوات النسائية وتنظيماتها أو حتى مبادرات النساء الفردية متزايدة بشكل هائل، فقد فرض سياق العالم الجديد قواعد العولمة القاسية، وفرضت التكنولوجيات الحديثة واقعها الخاص الحامل لشروط تطوير الحركات النسائية وعرقلتها معا. فازدادت جهود الفاعلات والفاعلين، وازدادت الضغوط لانفتاح الفضاء الرقمي ولتعدد المعرفلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية.

لقد تعالت أصوات الحركات النسائية في تونس تطالب بالحفاظ على المكتسبات التي تهددها الفترة الانتقالية وتصاعد الحركات الإسلامية ووصولها للحكم، واقترحت مؤسسات الدولة نفسها مشاريع تتعلق بإلغاء التمييز وإقرار المساواة التامة، وأثار هذا المشروع الرئاسي المقترح في عيد المرأة التونسية سنة 2017 جدلا كبيرا بين مؤيدين ورافضين. فنزلت القوى النسائية والنسوية والمدنية والمتعاطفة للشارع تطالب بالمساواة التامة وتشبث بحقوقها وتضغط لأجل المواطنة التامة.

وفي المغرب علت أصوات النساء يطالبن بالمساواة في الموارد، وكذلك في الجزائر بعد الحراك السياسي سنة 2018 تزايدت الفرصة للمطالبة بالمساواة التامة. ويمكننا ملاحظة ارتفاع الصوت النسائي بكامل البلدان العربية، فأمست المرأة فاعلا واضحا بارزا تقود المظاهرات المناهضة للنظام كما حدث في السودان وفي مصر وفي الجزائر وتطالب بحقوقها السياسية والاقتصادية.

لكن أوضاع النساء في بلدان كالعراق وسوريا تشهد المزيد من الصعوبات والتقهقر والتحديات التي تعيدهن إلى نقطة كنّ في بلدانهم قد تجاوزنها، ففي أثناء سيطرة تنظيم داعش على العراق وجزء من الأراضي السورية شهدت حقوق النساء تراجعاً كلياً، وبرزت ظواهر كدنا نعتقد أنه من المستحيل عودتها للوجود، كالتسبي والاعتصاب الجنسي الجماعي المشروع الذي مورس على الأيزيديات والكرديات وغيرهن من النساء اللواتي لم يخضعن. وتقهقرت حقوق النساء فعاد تعدد الزوجات، ومورست عليهن مظاهر عنف رمزي وجسدي عنيف بلا هوادة. وبذلك فإنّ الوقائع تثبت أن حقوق النساء في تهديد دائم، وأنّ النسوية العربية لا يزال أمامها عقبات مهولة لتتمكّن من تحقيق تقدم حقيقي ملموس يغيّر في حياة النساء العربيات.

أما في بلدان كتونس والمغرب والجزائر ولبنان ومصر فقد تزايدت في فترة بعد الثورات العربية الحركات الاحتجاجية وردّات الفعل من أجل المزيد من الحقوق والقوانين والتشريعات وتزايدت آمال الحركة النسوية في جل البلدان العربية لما تيسّر للنساء من فرص للحراك السياسي والحقوق، ومن حريات خاصة في بلد كتونس التي ازدادت فيها الجمعيات والمنظمات النسوية وغيرها. وساهمت الثورات في نقل النساء إلى قلب الحدث السياسي والمشهد الإعلامي والعام. فأثبتت النساء قدراتهن وكفاءتهن في القيادة والتعبير والاحتجاج والمقاومة وأكّدن إرادتهن في التغيير الاجتماعي والسياسي.

وتميّزت النسوية السعودية بحراك مهمّ في هذا السياق المتغيّر تساعدهنّ في ذلك ضغوط كثيفة لإقرار إصلاحات اجتماعية جذريّة في المملكة وانفتاح افتراضيّ غير ممكن التحكّم فيه ساعد النساء على الاحتجاج والمقارنة بغيرهن، والتثقف والمطالبة بحقوقهن، إضافة إلى تزايد الحراك الثقافي من نسوة أسهمن بأقلامهن في التعبير عن همومهنّ وهموم النساء الخليجيات اللواتي يخضعن لسلطة مجتمع محافظ فيه تراتبيّة تظلم النساء. وتمكّنت السعوديات من الطّفر ببعض المطالب، كقيادة السيارة وطرح مسألة الولاية والوصاية والحقّ في العمل والتمكين السياسي والحق في الانتخاب. ويمكن أن نعتبر هذه النتائج التي حققتها النسوية السعودية، على بساطتها، مهولة وعملاقة في مستوى رمزيّ حين نقارنها بما تعرّضن له في التسعينات من غضب وعقوبات، ويمكننا أيضا أن نعتبر هذه النسوية نموذجا لتأثير ثورة التكنولوجيا ووسائل الاتّصال والتواصل الاجتماعي. غير أنّ الطريق لا يزال صعبا عسيرا، ولا تزال التّحديات أمام كلّ النسوة العربيات مهولة.

5- الخاتمة: مستقبل الحركات النسوية العربية والرهانات الصعبة:

رغم كل الجهود المبذولة من النساء العربيات ومن فواعل الحراك النسويّ العربيّ المعاصر لا يمكن الحديث حقّا عن نسوية عربية موحّدة وبالمفهوم العلمي الدقيق كما هو الشأن في الحركات النسوية الغربية التي خضعت لمراجعات، وأرّخ لها بموجات أولى وثانية وثالثة وصولا إلى الحديث عما بعد النسوية¹. فهذه التيارات النسوية العربية لا تمثّل كتلا منسجمة ومتألّفة وهي تعمل بشكل فرديّ، وتتأسّس على جمعيات مجهدّة، وتخضع للمتغيرات السياسية لهشاشتها وعدم صلابة أسسها. ولعلّنا "بحاجة في الوطن العربي إلى تعلّم الكثير من زميلاتنا في شبه القارة الهندية، وفي سائر أرجاء آسيا وبلدان افريقيا وكذلك من النساء السّود والمهاجرات إلى أوروبا والولايات المتحدة"²

لكن، مع ذلك، يمكن الجزم بوجود آمال نسوية عريضة يحركها انتماء هؤلاء النساء لثقافة عربية إسلامية لم تحسم بعد علاقتها بالتاريخ وبالعروبة والهوية، ولم تجدد بعد علاقات الأفراد فيها ببعضهم بعضا ولم تحسم بعد علاقتها بماضيها وبمستقبلها، فما يوحد هؤلاء النساء العربيات هو العراقيل اللواتي يجدنها أمامهنّ بسبب بنية ثقافيّة تميّز بين الأفراد وبسبب دونيّة مرتبتهنّ وتردّي التنمية الاقتصادية في بلدانهم، وخضوعهم للفقر وللتهميش والعنف بسبب هذا التردّي السياسي والاقتصادي المبرّر تبريرا دينيا والذي تغطّي عورته القوانين.

وبالرغم من كلّ ما تقدّم، فقد تمكن هؤلاء النساء ومجتمعهم وقواه الحيّة من تحقيق تقدّم ولو نسبيّ، فحازت السعوديات على الحقّ في سياقة السيارة ودفعت التونسيات المجتمع للنقاش العميق حول الحق في المساواة في الموارد ولا تزال النساء في الأراضي المحتلة والأنظمة المتعثّرة يقاومن أصنافا متعدّدة من

1- انظر حوارا مع أمال قرامي: لا توجد حركة نسوية في العالم العربي في <https://aawsat.com/home/article/150616>، عوين 2019/07/6.

2- جين سعيد المقدسي، حقوق المرأة، الفكر النسوي ولغة الحركات النسائية العربية، النسوية العربية، رؤية نقدية، ص 60.

التحديات كالأستعمار والاسيطان والقهر في فلسطين وتهاوي الأمن والنظام في ليبيا وسوريا والحكم العسكري في السودان والحرب والمجاعة في اليمن.

إنّ البلدان العربية تفرض على مواطنيها تحديات هائلة لمواجهة امتحان التاريخ المعاصر، وقد استعدت النساء بشكل تلقائيّ طبيعيّ للدفاع عن الحياة والحقوق وللتنظّم في البلدان الأقلّ فوضى لمواجهة الثقافة الذكورية والرأسمالية المتوحّشة والفساد والتمييز.

وأمتت الحركة التونسية نموذجاً لتقدّمها في الحصول على حقوق لا تزال أملاً في بلدان عربية عديدة كمنع تعدّد الزوجات وتنظيم الطلاق والحصول على الحقّ في الانتخاب والمشاركة السياسيّة وقوانين التمكين والتنافس. وهكذا فقد أمتت مسؤوليّة التونسيّات عسيرة للقيام بمراجعات وبمباشرة النقد الذاتي والتمحيص لمعرفة الهنات وضبط خطة للعمل المستقبلي. فواقع النسويّة العربية معقد ومختلف، ولا وجود لهياكل جامعة تشجّعه وتنظّمه، ولكن مستقبله واعد بلا شكّ، من أجل النضال للمزيد من الحقوق السياسية والحدّ من العنف السياسيّ وكشفه والمشاركة في إحلال السلام وتحقيق التنمية العادلة والخروج من الفوات التاريخي، وليس مطلب النساء العربيات سوى الحصول على مواطنتهن التامة وهذه المواطنة هي اتجاه المستقبل الذي يحدّد مستقبل الأوطان العربية برمتها، فإذا تحقّقت هذه المواطنة تحقّقت الأوطان، وإذا تعسّرت هذه المواطنة تعسّرت الأوطان، فمستقبل النسويّة العربية هو في حقيقة الامر متطابق تطابقاً تاماً مع مستقبل الأوطان العربية. إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.



المراجع:

- 1- أبو بكر، أميمة، النسوية الإسلامية بين إشكاليات الداخل والخارج، مجلة طيبة، العدد 7، القاهرة، 2006.
- 2- أبو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999.
- 3- بن سلامة، رجاء، النساء في الخطاب العربي المعاصر، منشورات تجمع الباحثات، بيروت، ط1، 2004.
- 4- تاريخ الحركات النسائية في العالم العربي، وضع المرأة العربية 2005، الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا.
- 5- جدعان، فهيم، خارج السّرب، بحث في النسوية الإسلامية الراضية وإغراءات الحرية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2، بيروت، 2012.
- 6- جماعي، النسوية العربية رؤية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية- تجمع الباحثات اللبنايات، بيروت، 2012.
- 7- جويرو، زهية، الواد الجديد مقالات في القنوى وفقه النساء، مسكيليانى للنشر، ط1، 2014.
- 8- الحداد الطاهر، امراتنا في الشريعة والمجتمع، تونس، الدار التونسية للكتاب، ط5، 1989.
- 9- الحداد، محمد، حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة، بيروت.
- 10- رجائي أحمد، 1000 شخصية نسائية مصرية، سلسلة الموسوعة
- 11- صابر، خليفة صفاء، المشاركة المدنيّة للشباب والبيئة العربية: ستّ سنوات على تحليل الخطاب وتقييم الفترة الماضية، نموذج مساهمة المرأة في الحياة السياسية العربية، في: مشاركة النساء في السلام، الأمن والعمليات الانتقالية في اعالم العربي، مساهمة باحثات وباحثين، مؤتمر فريدريش إيبرت/مساواة، بيروت، 16-17 نوفمبر 2017.
- 12- عبود، حسن، الخطابات المتباينة للنسوية والإسلام، باحثات، الكتاب 9، بيروت.
- 13- المرزوقي، إلهام، الحركة النسائية في تونس في القرن العشرين، ترجمة أمال قرامي، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010.
- 14- قرامي، أمال: حوار معها: لا توجد حركة نسوية في العالم العربي! في: <https://aawsat.com/home/article/150616>، عوين 2019/07/6.
- 15- دليل للدراسات النسوية النسائية الشابة، نظرة للدراسات النسوية: <https://nazra.org/sites/nazra/files/attachments/>